# مدافن الملوك والسلاطين في دمشق

بقلم

الاستاذ خالد معاذ

حفلت مدينة دمشق الخالدة ، في عداد ما حفلت ، من المنشآت والمعاهد المتنوعة ، بعدد وافر من المدافن التي تضم رفاة نخبة من الرجال ، وعلى رأسهم الصحابة والزهاد ، والملوك والأمراء ، وسواهم من مشاهير الأعلام الذين كان لهم شأن في تاريخ هذا البلد .

وقد دفن جل هؤلاء في المقابر العامة ، ولكن بعضهم شيدت له مدافن خاصة ، سميت تارة مقبرة ، وتارة قبة ، إلى أن استقر اسمها على « التربة » .

بلغت هذه الترب في دمشق ، على توالي الأيام ، عدداً لا بأس به . وقد أسهمت في رقي الريازة [1] والعمران ، كما أسهمت في تطور الحياة الاجتماعية العامة . وأصبح لها شهرة ومكانة . ثم إنها فقدت شهرتها ومكانتها تدريجياً ، وشملها النسيان والاهمال فالخراب والدمار .

وقد أفردنا هذا المقال للبحث عن بعض تلك الترب مما شيد لدفن الملوك والسلاطين في العهد الاسلامي ، وكانت تعد بالعشرات ، فدرس بعضها وضاعت معالمه منذ عهد بعيد وتهدم أغلبها في هذا القرن وأصبحت عبارة عن دمن وأطلال ، ولم يبق منها إلا عدد يسير سجلت جزءاً منها مديرية الآثار العامة في عداد ما سجلته من الأبنية الأثرية المصنفة في دمشق .

إن شأن هذه الترب اليوم كشأن سائر الأبنية في دمشق — بل وفي سوريا — قلّ من

---

(١) الريازة : حرفة الراز . والراز من راز الحجر كما جاء في القاموس . وقد استعملناها في معنى فن العمارة Architecture .

يعرفها أو يُعنى بها أو يعيرها أي اهتمام . فغدت ابهاء متهدمة ، ونقوشاً دارسة ، لا تستهوي سوى علماء الآثار والمؤرخين .

على أن لبعض هؤلاء الملوك ذكرى ماثلة في الأذهان ، فإن نسي الناس بعض الصحابة والزهاد ، وأغلب الملوك والأمراء ، فسيرة نور الدين الشهيد وعدله مثلاً ، ومناقب السلطان صلاح الدين الأيوبي وجهاده ، مازالت تثير في النفوس شتى المشاعر والاحساسات .

وقد توخينا الكتابة في هذا الموضوع بغية لفت الأنظار إلى أهمية مدافن الملوك والسلاطين - اوالترب الملكية في دمشق — لعلاقتها الوثيقة بتراثنا القومي وتاريخنا المجيد .

## المصادر والمؤرخون

يفتقر الحديث عن الترب الملكية إلى مصادر تاريخية لتعيين الزمن الذي شيدت فيه . كما يحتاج إلى أبحاث علمية لمعرفة الأساليب والقواعد التي بنيت على أساسها . فلم يُعن مؤرخو دمشق في تدوين التاريخ العمراني لهذه المدينة بقدر عنايتهم في تدوين سائر الوقائع والأمور .

تتعدد المصادر عن المعاهد الدينية في دمشق اعتباراً من القرن السابع — ولاسيما القرن العاشر — ولكن هذه المصادر تقتصر على إحصاء المعاهد وبعض المنشآت وذكر أسمائها وأنواعها وأسماء بُناتها ، فلا تتطرق إلى وصفها من حيث الهندسة والتصميم ، لأن الأبنية في حد ذاتها لم تكن لها أي قيمة في نظر المؤرخين القدامى . إنما تنصرف عنايتهم إلى الأشخاص الذين كانت لهم صلة بالبناء من قريب او بعيد ، فيطيلون الحديث عنهم ويسهبون في الترجمة لهم .

ومما هو جدير بالذكر أن أحداً من المؤرخين لم يبحث الترب الملكية أو يفرد لها حديثاً خاصاً (١) ، بل جاء ذكرها أحياناً في متن التواريخ أو في المصادر الخاصة عن المعاهد والمنشآت .

أول من تكلم عن الترب في دمشق بوجه عام ، وأفرد لها فصلاً خاصاً — على ما نعلم —

---

(١) لنا في إحصاء الأبنية الأثرية في دمشق خلال العهد الاسلامي ، وفي النصوص القديمة المتعلقة بها دراستان لم تنشرا بعد ، وقد استعرنا منها المواد الضرورية لهذا المقال ، واعتمدنا من الأولى فصل الترب ومن الثانية فصل الـواهد والرموس .

المؤرخ ابن شداد ( ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م ) في كتابه المسمى « الأعلاق الخطيرة » (١) . وكان ذلك في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، أي بعد مضي نيف وقرن على تشييد اول تربة ملكية في دمشق ، إذا اعتبرنا الدور النوري في القرن السادس مبدأ لتاريخ إنشاء الترب كما سيتضح من سياق الحديث .

ثم مضى القرن الثامن والتاسع ، اي عهد المماليك في دمشق ، فلم نعثر على من تكلم خلالها عن الترب .

حتى إذا كانت اوائل القرن العاشر جاء المؤرخ عبد القادر النعيمي الدمشقي ( ٩٢٧ هـ = ١٥٢٠ م ) والف كتابه المسمى « الدارس في تاريخ المدارس » (٢) وتناول به بحث الترب وافرد له فصلاً خاصاً .

وتبعه في القرن العاشر ايضاً المؤرخ ابن طولون الصالحي الدمشقي ( ٩٥٣ هـ = ١٥٤٦ م ) والف كتابه « القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية » (٣) . ذكر فيه الترب الكائنة في تلك الضاحية .

ويليه في القرن ذاته المؤرخ عبد الباسط العلموي الدمشقي ( ٩٨١ هـ = ١٥٧٣ م ) . الذي اختصر كتاب النعيمي وسماه « مختصر تنبيه الطالب وارشاد الدارس » (٤) وعلق عليه تعليقات مفيدة .

ثم مضت ثلاثة قرون من الحكم العثماني على دمشق ، انقطعت خلالها اخبار المعاهد والمنشآت ، التي بدأت حينئذ تضمحل وتندرس فلم يبحث عنها أحد — إلا ما ندر — ولم يؤلف فيها شيء يذكر .

---

(١) لا يزال هذا الكتاب مخطوطاً ، ونسخه نادرة على ما نعلم ، يوجد منها واحدة في مكتبة الاسكوريال ، واخرى في مكتبة الفاتيكان ، شاهدناها في العام الماضي ، واطلعنا على صورة نسخة الفاتيكان في حلب ، منذ نيف وخمسة عشر عاماً .

(٢) حقق هذا المخطوط الأمير جعفر الحسني ، ونشره عام ( ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٨ م ) في مطبوعات المجمع العلمي العربي في دمشق . وعلق عليه تعليقات مفيدة جداً ، وجعل له فهارس مفصلة ، وهو المرجع الأساسي عن معاهد دمشق الدينية .

(٣) حقق هذا المخطوط الأستاذ محمد أحمد دهمان ، وطبعه على نفقته الخاصة سنة ( ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩ م ) وهو أحسن ما وصل إلينا عن تاريخ الصالحية .

(٤) ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الافرنسية ( هـ . سوفير ) وطبعه في أعداد مجلة ( الجريدة الأسيوية ) بين سني ( ١٨٩٤ — ١٨٩٦ ) ميلادية .

إلى ان سخر لها في أوائل هذا القرن المؤرخ عبد القادر بدران الدمشقي ( ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٨ م ) وكان له عناية خاصة بتاريخ دمشق (١) وخططها وآثارها ، فاطلع على المصادر القديمة ( وكان جلها مخطوطاً حينذاك ) وتفقد المعاهد والمنشآت ، وشاهد ما آلت اليه من الخراب والدمار ، وما اصابها من التعدي والاغتصاب ، فعاهد نفسه على ان يكشف عنها الستار . فكتب ما استطاع أن يكتب (٢) ، غير ان كتاباته بقيت مخطوطة مع انها جليلة الفائدة ، ولها اهميتها من حيث الصلة بين الحاضر والماضي .

واول من كتب عن دمشق في هذا الجيل وكشف النقاب عن معالمها وآثارها ومعاهدها المؤرخ الكبير الأستاذ محمد كرد علي في كتابه « خطط الشام » .

هذا وكانت دمشق خلال هذا القرن موضع اهتمام رهط من علماء الآثار قاموا بدراسات وابحاث قيمة ترتكز — لأول مرة — على اسس علمية ووثائق فنية .

جرت باكورة هذه الأبحاث بين سني ( ١٩١٤ و ١٩١٨ ) ميلادية ، اي خلال الحرب العظمى الأولى ، قامت بها بعثة اثرية المانية ، وتمخضت عن مجلدين ، الأول : عن دمشق قبل العهد الاسلامي (٣) والثاني بعده ، وتحتوي هذه المؤلفات على اول مخطط وضع لدمشق وظهرت فيه اماكن الأبنية الأثرية بالاضافة إلى ما تحتويه من الصور والرسوم ، والوثائق الفنية (٤) .

وكان لجهود الأستاذ سوفاجه ، العالم الأثري الكبير وأستاذ الحضارة الأسلامية في جامعة باريز الذي وقف اعظم سني حياته على دراسة الآثار الاسلامية في سوريا ، أثر طيب في نشر جزء كبير من الأبنية الأثرية في دمشق (٥) .

---

(١) لخص تاريخ ابن عساكر الكبير للمؤرخ الدمشقي العظيم الحافظ ابن عساكر ( ٥٧١ هـ = ١١٧٥ م ) في سبعة أجزاء وسماه : « تهذيب تاريخ ابن عساكر » .

(٢) أغلب مخطوطاته محفوظة في المكتبة الوطنية في دمشق وأهمها صورة عن : « منادمة الأطلال ومسامرة الخيال » .

(٣) أنظر ( DAMASKUS ) في فهرس للمصادر لهذا المقال .

(٤) وجدير بالذكر أن هذا الكتاب أصبح اليوم أقل شأناً من حيث الموضوع على أثر ما نشر بعده من المؤلفات .

(٥) توفي الأستاذ سوفاجه منذ عامين وخلف عدداً غير قليل من المؤلفات عن الحضارة الاسلامية في سورية وآثارها ، أوردنا من مؤلفاته ما له علاقة في الترب في مصادر هذا المقال .

كما أن الأستاذ ارنست هرزفلد ، قام منذ بداية هذا القرن ، في جمع شتات الوثائق والمواد عن الأبنية الأثرية في سوريا — ولا سيما في دمشق — نشرها أخيراً في أعداد مجلة الفنون الاسلامية ( آرس اسلاميكا ) (١) .

## تاريخ الترب

يكتنف تاريخ مدينة دمشق أوضاع وظروف سياسية جعلها تضطرب بين أن تكون عاصمة الدول الاسلامية او أن تتقلص إلى مجرد ولاية خاضعة لغيرها من العواصم .

وقد شيدت الترب الملكية في دمشق خلال الأدوار التي كانت فيها عاصمة لتلك الدول .

وإذا كان باستطاعتنا إحصاء عدد الملوك الذين حكموا دمشق في العهد الاسلامي وجعلوها عاصمة بلادهم ، فانه ليس من السهل معرفة كافة الترب التي شيدت لهؤلاء الملوك . ولما كان بحثنا سيقتصر على الترب التي لا تزال قائمة او التي شيدت فعلاً ووصلت إلينا أخبارها ، وجدنا أنفسنا ، على وجه الحصر ، لا نخرج عن عهد الدولتين النورية والأيوبية ، وبالتالي لا نتعرض إلى بقية الدول والملوك ، وفي طليعتهم خلفاء بني أمية العظام ؛ لأن ما حلّ بقبور هؤلاء من الخراب والدمار على أثر استيلاء العباسيين على دمشق وتنكيلهم بهم ومحوهم لآثارهم أمر معروف ، وإن عداوة العباسيين للأمويين وإظهارهم تلك العداوة خلال حكمهم ، كانت كافية للتعفية على آثارهم (٢) وإن يحجم أهل دمشق ، مع ولائهم للأمويين ، عن صيانة تلك القبور ، وتعهدها بالعناية فلخوفهم من غضب العباسيين وبطشهم .

فالقبر الوحيد من قبور الأمويين الذي صانته الأقدار ، ولا يزال قائماً ، هو قبر أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان أحد الصحابة ومؤسس الدولة الأموية . توفي سنة ( ٦٠ هـ = ٦٨٠ م ) ودفن في مقبرة الباب الصغير (٣) . وقد أشار إليه العالم الأثري الأمير جعفر الحسني وافرد له بحثاً خاصاً في مجلة المجمع العلمي العربي (٤) أكد فيه نسبة هذا القبر الى معاوية بن

---

(١) أطلب مصادر هذا المقال .

(٢) باستثناء الجامع الأموي الذي خلد ذكرى هذه الدولة وكفاها مجداً وعزاً مدى الدهر .

(٣) تقع هذه المقبرة في الجنوب الغربي من السور ، مما يلي الباب الصغير ، وسميت به ، وهي من أقدم مقابر دمشق . وبها قبور الصحابة والشهداء ، وعدد كبير من مشاهير الأعلام .

(٤) سنة ١٩٤٤ المجلد ٩ جزء ٩ و ١٠ الصفحة ٤٣٤ وما يليها .

أبي سفيان بأدلة قاطعة وبراهين ساطعة [١]، فلا داعي للتطويل في هذا الصدد، ولا سيما ان هذا القبر لا يوجد عليه تربة قائمة أو بناء مشيد، مما يصح البحث عنه في مقالنا الخاص هذا، بل جل ما هنالك حظيرة متهدمة مبنية من اللبن، يتوسطها ضريح من التراب، أمامه شاهدة متصدعة هي جزء من عمود نقش حوله بالخط النسخي وبأحرف بارزة أربعة أسطر تدل على صاحب القبر. ويتبين من نوع الخط وأسلوبه أنه يرتقي الى عهد المماليك والأرجح لأواخره.

أما بقية الأدوار التي تتابعت على هذه المدينة عقب انقراض الدولة الأموية، فقد أصبحت دمشق خلالها مجرد ولاية مغمورة ولم يشيد فيها أي بناء يذكر فضلاً عن الترب الملكية.

على أن الدور السلجوقي يمتاز من تلك الأدوار بما ظفرت به دمشق من السيادة والاستقلال، وان ظلت في حكم الولاية، فنشطت الحركة العمرانية — كما ينبئنا المؤرخ المعاصر ابن القلانسي — وشيد بها عدد غير قليل من الأبنية، ولا جرم أن أقدم الأبنية الأثرية التي لاتزال قائمة في دمشق، باستثناء الترب الملكية، يرتقي عهدها الى هذا الدور، (النصف الأول من القرن السادس).

أما من حيث الترب الملكية فانها لم تظهر في دمشق قبل ظهور الدولة النورية في النصف الثاني من القرن السادس. وهكذا يعتبر الدور النوري مبدأً لتاريخ تشييد تلك الترب.

## القصد من تشييد الترب

لم يقتصر الغرض من تشييد الترب على دفن الموتى وتخليد ذكراهم فحسب، بل تعداه الى غايات ومقاصد أخرى لعل أهمها فعل الخير ابتغاء مرضاة الله. فكان تشييدها في بعض الأحيان لا يقل شأناً عن اقامة المساجد او بناء المدارس، فضلاً عن انها احتوت على محاريب لاقامة الصلوات، وزودت بعدد وافر من الكتب [٢]، فكانت عامرة بالقراء والحفاظ.

وقد حرص أغلب الملوك على تشييد تربهم في حياتهم، وتباروا في جعلها اماكن نزهة

---

(١) بالاضافة الى ما جاء في مقال الأمير من الأدلة، عثرنا بدورنا في جوار ضريح معاوية على عدد من الشواهد القديمة. وتشير المصادر الى أن أصحابها دفنوا بالقرب من الضريح المذكور. هذا ولم ينقطع مؤرخو دمشق عن الاشارة إلى قبر معاوية خلال كافة الأدوار ولغاية القرن الثاني عشر.

(٢) كان وقف الكتب على الترب امراً مألوفاً على ما يظهر من المصادر حيث نجد خبرها في أماكن عديدة ومناسبات شتى أهمها في تراجم الأعلام.

مؤنسة لا تخلو من الروعة والوقار ، تنشرح لها الصدور ، وتنبسط لها السرائر ، بعيدة عن كآبة القبور ووحشة المقابر .

كانهم وقفوا لها أوقافاً تدر عليها الأموال الطائلة ، وكانت تزيد أحياناً عن حاجتها ، فيصرف من ريعها على شؤونها ومصالحها ، وينفق من خيراتها على القراء والخدم ، وما فاض عن ذلك يُتصدق به على الفقراء والأيتام والمعوزين ، وبوجه عام كانت وسيلة من وسائل البر والاحسان .

وغدت تلك الترب مراكز اجتماعية عامة يقصدها الغريب والقريب ، ويلتقي بها الغني والفقير ، ويتذاكر فيها العلماء ويتدارس طلاب العلم ، وزادها ما اشتملت عليه من الكتب القيمة ، والمؤلفات النادرة . وكأنها كانت بمثابة المكاتب الأهلية العامة ، زاخرة بشتى العلوم ، فضلاً عن كتب الأدب والتاريخ والفنون[1] مما جعل لها نصيباً وافراً في الحركة العلمية والنهضة الثقافية في البلاد .

وقد بلغت الترب من الشأو والمكانة أن جعلت أحياناً داراً للضيافة لكبار المسافرين من الملوك والخلفاء والوزراء والأعيان[2] ، لما كانت عليه من حسن الترتيب ، وأناقة الزخرف ، ونظافة الفرش ، وغير ذلك من الميزات .

هذا ولم يتوان أصحاب هذه الترب عن اللجوء الى شتى الوسائل للفت أنظار الناس الى تربهم علهم يظفرون منهم بقراءة الفاتحة عن أرواحهم واستمطار الرحمة عليهم ، وهذا غاية ما كانوا يتوخونه لقاء عملهم .

فمن تلك الوسائل انشاء الأحواض وقنوات السبل بجوار الترب حيث تجري المياه

---

(١) قال ابن خلكان في وفيات الأعيان جزء ٢ ، صفحة ١٧٦ في ترجمة ( أسعد بن يحيى السلمي السنجاري ، الفقيه الشافعي الشاعر ، المنعوت بالبهاء ) ما يلي :

« .... ولم أقف له على ديوان ، ولم أدر هل دون شعره أم لا ، ثم وجدت له في خزانة كتب التربة الأشرفية بدمشق ديواناً في مجلد كبير ، ... »

(٢) قال المؤرخ الدمشقي ابوشامة في ذيل الروضتين ص ٢١٣ وفي حوادث ( سنة ٦٥٩هـ = ١٢٦٠ م ) ما يلي :

« وفي يوم الاثنين سادس ذي القعدة وصل الى دمشق العساكر المصرية مع السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي المعروف بالبندقداري ومعهم الخليفة المستنصر بالله ابو القاسم احمد بن الظاهر بن الناصر واحتفل الناس للقائهما وكان يوماً مشهوداً ، ونزل الظاهر بالقلعة ونزل الخليفة بالتربة الناصرية بجبل قاسيون » .

العذبة فيرتوي بها عابرو السبيل . وكذلك غرس الأشجار المورقة حول الترب يستظل بها الناس .

كما كانت تنقش على جبهات الترب كتابات تتخللها آيات قرآنية كتبت بخط بديع متقن .

وكانت صيغة تلك الكتابات متشابهة في أغلب الأحيان ، وتبدأ بعد البسملة كما يلي :

« أنشأ هذه التربة المباركة العبد الفقير الى الله تعالى ... » ويتبعها أحيانا نص كتاب الوقف وشروطه ، وتنتهي ب :

« رحمه الله ورحم من ترحم عليه » .

وتحتوي هذه الكتابات أحياناً على عبارات التهديد والوعيد لمن يتعدى على التربة او على اوقافها ، كما جاء في كتابة التربة المثقالية [1] المزبورة على عتبة النافذة الغربية من البناء :

« ... فمن [تعدى له] أو غيره أو بدَّله أو نقصه أو محى رسماً من رسومه او يتعرض لطلاب [حق] من حقوقه او باشر ما يوجب نقصه أو سعى في [النيل] من هذا القبر بقول او فعل ... الله وحبسه الله وطلبه الله وقتله الله وأخذ الحق منه الله يوم ... وعليه بعد ذلك لعنة الله ولعنة الملائكة والناس أجمعين » [2] .

## الهندسة

### المنشأ

ان قاعدة تشييد الأبنية على الأضرحة ليست دخيلة او طارئة على سوريا ، بل هي عادة قديمة مألوفة منذ زمن بعيد فى هذه البلاد ، ولا يقتصر بناؤها على العهد الاسلامي فحسب بل يتعداه الى عدة قرون قبل الاسلام .

واذا أمعنا النظر في هندسة الترب ، وتتبعنا تطورها خلال الأدوار التاريخية نجد ان اسلوبها قلما يتغير ، مما يدل على ان هذا الأسلوب لم يظهر فجأة ، أو ليس وليد قرن واحد

(١) التربة المثقالية ، شيدها الأمير الكبير المجاهد المقدم ابو سعيد مثقال الجدار الملكي الناصري ، توفي سنة ٦٢١ . تقع في محلة الشركسية ( الجهاركسية ) في الصالحية ، تجاه الجامع الجديد ( التربة الخاتونية البرانية ) وهي بناء أثري مسجل رقم ١١٦ .

(٢) يقوم في فناء هذه التربة الآن ، من جهتها الغربية ، بناء حديث يسد النافذة التي تحمل النص الوارد ذكره في أعلى ، مع أن شرط الواقف وواجب التربة يمنع قيام مثل هذا البناء .

بل انه سليل اسس وقواعد قديمة تطورت تدريجياً إلى ان اتخذت شكلها النهائي في العهد الاسلامي ، كما نجدها في اقدم الترب التي عرفناها في دمشق . واذا قارنا بين هذه الترب وتلك التي كانت موجودة قبل الاسلام (١) نجد اوجه الشبه عديدة ما بينها مما يحدد موطنها الاساسي في هذه البلاد ، ويجعل منشأها فيها (٢) .

ان اقدم الترب من العهد الاسلامي في دمشق يرتقي عهدها الى اوائل القرن السادس ، وبما ان العناصر والمواد الضرورية لدراستها لا تتوفر قبل هذا القرن ، فقد اعتبرناه مرغمين مبدأ لتاريخها ، كما جعلناه ايضاً مبدأ للبحث في اساليب بنائها وتطور ريازتها .

ومما هو حري بالذكر ان الترب الملكية ليس لها اسلوب معين او ريازة خاصة بها ، بل تتبع في بنائها الاسس والقواعد العامة التي تخضع لها سائر الترب ، وتتطور مع تطورها ، ولا تتميز عنها بشيء يذكر ، ورب تربة لأحد الناس تميزت عن ترب الملوك وفاقتها اهمية واتقاناً من حيث الريازة والزخرف .

وهكذا يتضح لنا ان البحث في الترب الملكية يشمل بطبيعة الحال البحث عن الترب الاسلامية بوجه عام .

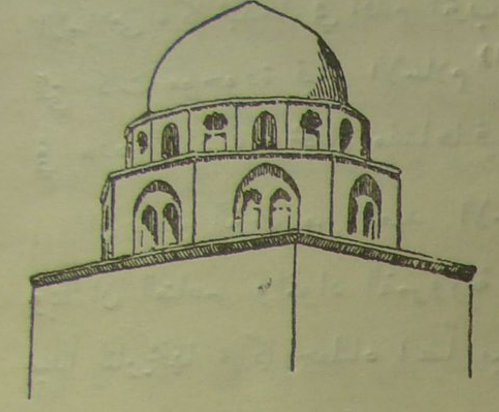
## التطور والشكل

يخضع تشييد الترب لقواعد واسس حددتها بوجه عام الغاية والقصد من تشييدها ، منذ عهد بعيد ، ثم تكفلها الزمن ، فتطورت الترب على اسس وقواعد جديدة ، وتعهدها البناؤون بعنايتهم ، الى ان استقرت على اساليب خاصة تضمن لها انسب الأوضاع ، وتكفل لها اكمل الشروط . وهكذا انتهت الى شكل معين ، يكاد لا يخرج عن نمط واحد الا فيما ندر .

(١) De Vogüé, *Syrie central, Architecture civile et religieuse du IIIe au VIIe siècle*. 2 in-4°. Paris, 1865-1877. *American Archaeological Expedition to Syria in 1899-1900. Part II, Architecture and other Arts*, by H. C. Butler. New York, 1904. *Syria, Publications of the Princeton Univercity Archaeological Expeditions to Syria in 1904-1905 and 1909* Division II, *Architecture*, Section B, *Northern Syria*, by H. C. Butler. Leyde, 1920 sq. — H. C Butler, *Early Churches in Syria*, ed. by E. Baldwin Smith. Princeton, 1929. A travers les villes martes de Haute Syrie

(٢) Fr. Cumont, Etudes Syriennes, chap. VI.

واصبح شكلها الأخير مثالياً ونموذجياً في تشييد الترب . وقد ألفنا بدورنا هذا الشكل ، منذ أمد بعيد ، كما نراه في أحياء دمشق القديمة .



## المؤثرات الخارجية

واذا حدث ان هذا الشكل قد طرأ عليه شيء من التحوير او التغيير ، إن في الريازة او في الزخرف ، أو ان بعض الترب قد شذّت عن الأساليب والقواعد المألوفة ، فما كان ذلك ليتعدى كونه ظواهر عارضة لم تشمل الترب عموماً بل اقتصرت على بعضها ، وسببه فيما نعلم بعض المؤثرات الخارجية ، التي لم يخل منها دور من الأدوار ، مما كان يهب على دمشق من المشرق تارة ، ومن المغرب تارة اخرى . او قد تكون هذه المؤثرات مجرد اساليب متبعة في واحدة من المدن السورية ، تأثر بها فن البناء في دمشق [1] .

ومن البدهي ان مدينة تتمتع بموقع كموقع دمشق الجغرافي ، لابد لها من ان تكون مهباً لتيارات شتى ، تأتيها من كل جانب ، مادامت عقدة للمواصلات ، وملتقى للقوافل الذاهبة والآيبة بين الهند وفارس والمغرب ، وبخاصة طريقاً الى الحج ، ومنتجعاً للحجيج في سبيلهم الطويلة . وقد كان هؤلاء الحجاج يقيمون في دمشق ردحاً من الزمن يباشرون خلاله حرفهم التي حملوها من ديارهم البعيدة من كل فن غريب وصنعة نادرة ، كان يتلقفها الصناع السوريون ، فيحسنونها ويطورونها ويدخلون عليها ، بحسب مواهبهم ، فنوناً جديدة . ولا جرم أننا نجد في بعض ابنية دمشق اساليب فارسية او عراقية او اندلسية او غيرها ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك تربتين من ترب دمشق ، هما التربة التكريتية [2] والتربة الملكية الظاهرية (سنأتي على ذكرها ) وقد شيدتا على اسلوب واحد تقريباً ، ولكن الأولى حملت زخارف يظهر في

(١) تربة ( الأمير ) ابن المقدم ( الحلبي في مقبرة الدحداح ) لخالد معاذ . ( اطلب مصادر هذا المقال )

(٢) بناء أثري مسجل رقم ٦٩ ( التربة التكريتيه ) تقع في محلة بين المدارس في الصالحية .

نقوشها الجصية أثر الفن الأندلسي ، على حين ان الأخرى – الظاهرية – تحمل زخارف من الفن السوري العريق ، ولا سيما الفسيفساء .

## القواعد والاساليب [1]

يتقيد بناء الترب بقواعد واساليب ، بعضها ضرورية لا بد منها ، وبعضها ثانوية الغاية ، منها توفير الشروط الملائمة لبنائها وأهمها :

ان يكون البناء صحيح التوجيه ، محرر القبلة ، وان يكون في موضع آهل بالسكان ، مشرف على مسالك الطرق ، قريباً من المسجد او ضمن المدارس ، والى غير ذلك من الأمور التي تتوخى في الترب حتى تدنو من الكمال ، وتجاري التقاليد المألوفة في تشييدها . ومن هنا شيدت اغلب الملوك تربهم في جوار الجامع الأموي او في المدارس .

## الأبعاد

تبدو أغلب الترب متساوية في الأبعاد ، كما تبدو متشابهة في الشكل ، وعلى الأخص الترب المنعزلة التي شيدت على نمط واحد مألوف ، امثال الترب الملكية : النجمية ، والفروخشاهية ، والظافرية او خلافها من سائر الترب : كالعزية [2] ، (تجاه مدرسة التجهيز ) او البدرية [3] ، في الطريق حارة الأكراد ) . على أنه قلما تتطابق ابعاد تربتين مهما تشابهتا ، إذ انه لكل

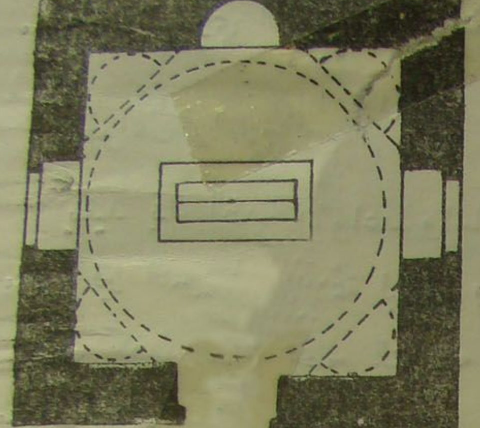
---

(١) لا يستطيع الباحث أن يفصل في هذه الامور – القواعد والأساليب ، الهندسة ، التصميم ، الخ.. ما دام الموضوع مختصراً على الترب الملكية ، ولكن التعرض لها أمر ضروري ، لأن المصادر التي تفرد لها دراسات خاصة ، إنما هي نادرة ، من هنا أوجزنا البحث في هذا الصدد وقصرناه على القواعد الأساسية والخصائص العامة ( Caractères généraux ) للبناء ولم نزد على ذلك ، لأن التفصيل قمين بتصانيف خاصة ، وهو ما فعلنا في كتابين أشرنا إليها في حاشية سابقة .

(٢) شيدها سنة ( ٦٢١ هـ = ١٢٢٤م ) – كما يتبين من الكتابة المزبورة على باب التربة والمدرسة – الأمير عز الدين ايبك المعظمي استاذ الدار للملك المعظم ونائبه على صرخد ، توفي سنة ( ٦٤٥ هـ = ١٢٤٧ م ) ودفن بها ( بناء أثري مسجل رقم ٢٥ ) .

(٣) تربة الأمير بدر الدين حسن بن الداية ، المعروف بـ لالا – اي المربي – كان هو وأخوته من أكابر امراء الملك العادل السلطان نور الدين محمود بن زنكي الشهير بـ – الشهيد – . ( بناء أثري مسجل رقم ٦٠ ) .

منها سعة ومقاييس خاصة تختلف عن سواها — كما يتبين من المقارنة بين أبعاد الترب المذكورة في هذا المقال —



### العناصر الهندسية

لما كان الشكل المألوف الذي استقرت عليه التربة ، قوامه القاعة المربعة والقبة . فبناء هذا الشكل يتكون من مجموع العناصر الهندسية الآتية : الجدران ، الدعائم ، الأقواس ، الزوايا ، الحطة ، والقبة .

يضاف إلى ذلك الضريح والمحراب ، ثم بعض العناصر الثانوية كالباب ، والشبابيك ، والكوى النافذة ، فضلا عن الأعمدة والمقرنصات والكوى العمياء وسواها التي تعتبر في آن واحد عناصر هندسية وزخرفية .

### مواد البناء

شيدت الترب بمواد البناء المألوفة في دمشق وأهمها : الحجر . ان تعدد المقالع في دمشق ووفرة الحجارة فيها ، جعلت من هذه المادة عنصراً أساسياً مهما في البناء . وقد أولع السوريون — بصورة عامة — بنحت الحجارة وصقلها في اشكال والوان عديدة منذ عهد بعيد . وتشهد بذلك الآثار المتراكمة في أنحاء البلاد . كما برزوا في تكييفها حسب ذوقهم الخاص وميولهم الفنية ، إلى أن أصبحت بحق من صميم خصائص العمارة السورية فكان لها أثرها العميق في تطور الريازة في هذه البلاد ، وفي تحويل العناصر الهندسية الغربية ، التي دخلت عن طريق التأثيرات الخارجية — التي أسلفنا الحديث عنها — وجعلها ذات طابع محلي خاص ، ينسجم مع تقاليد العمارة السورية .

أما الآجر فقد كان كذلك من مواد البناء المألوفة في دمشق ، وكان له دور عظيم في تشييد الترب . وهنالك بعض مواد أخرى لها شأنها في بناء الترب وأهمها : الخشب ، والجص ، والحديد .

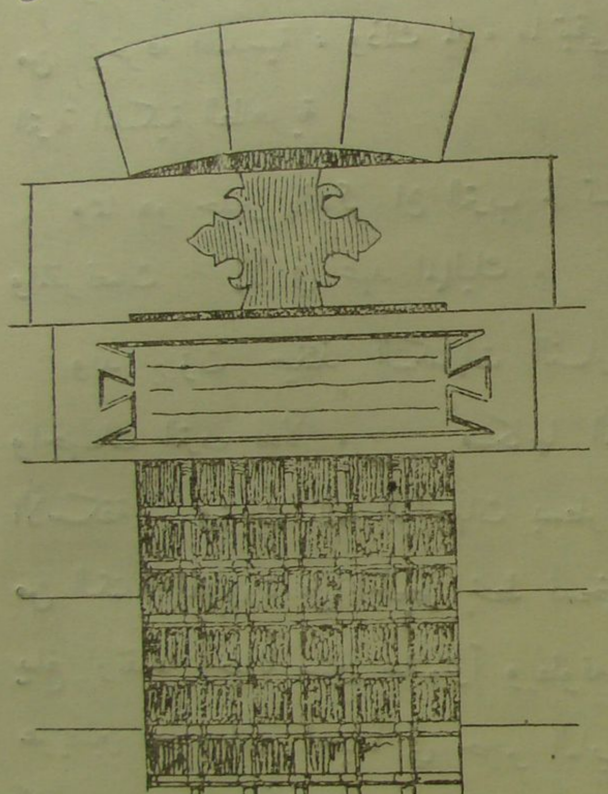
### البناء

يتألف بناء الترب — في شكلها الخارجي — من الجدران الأربعة ، وهي تحدد ما يسمى القاعة التي تعلوها الحطة ثم القبة .

تشيد الجدران بالحجارة المنحوتة في ابعاد ( ٣٠ × ٥٠ ) تقريباً ، وتجعل في مداميك مرصوفة بصورة متوازية بعضها فوق بعض ، وتنتهي في أعلاها بافريز مُخلّق يتوج جبهة البناء ، ولعله العنصر الوحيد الذي يحتوي على شيء من التخليق .

وتشيد الجدران احياناً بالحجارة الغشيمة المكسوة بطبقة من الجص او الكلس .

تبدو هذه الجدران للناظر في منتهى البساطة ، إذ قلما تحتوي على شيء من الزينة او الزخرف - لا سيما في الدور الأيوبي - ولكنها على الرغم من هذه البساطة لا تخلو من الروعة من حيث التناسب في الأبعاد والتوازن في العناصر ولما تضفيه الحجارة المجلوّة من الوقار - وقد اكسبها مرور الزمن لوناً ذهبياً اخاذاً -



ان اهم ما يبدو في هذه الجدران من الخارج ، النوافذ والباب ، وليس بينها كبير اختلاف من حيث السعة والشكل . يتوسط غالباً كل جدار نافذة عليها حاجز من الحديد والنحاس . اما الباب فهو اما في الوسط كالنوافذ واما منحرف الى الجانب .

يعلو النوافذ - والباب أيضاً - اسكفة حجرية من قطعة واحدة يبلغ طولها متراً ونصف المتر تقريباً ، وارتفاعها اما بارتفاع المدماك الذي يوازيها واما اعرض منه بقليل ، فيبلغ نصف المتر تقريباً ، يرتكز هذا الأسكفة على خدي النافذة ، ويحتوي على الكتابة التاريخية للتربة ضمن ( خرطوش ) ينتهي من جانبيه بـ ( ذيل السنونو ) وتتألف الكتابة من خمسة او ستة اسطر ، وهي مكتوبة بخط نسخي واضح ، بأحرف نافرة مزبورة على الحجر ، ويعلو هذا الأسكف المدماك التالي ، الذي وضعت حجارته المصاقبة[١] على الأسكفة بشكل تقع فيه خطوطه العمودية مائلة نحو وسط النافذة ، لجعل فراغ[٢] - مستقيم أو مقوس - بين الأسكف وما يعلوه من المزورات ، والغرض من هذه

---

(١) المزورات = ( Claveaux )
(٢) قوس القبان = ( Arc de descharge )

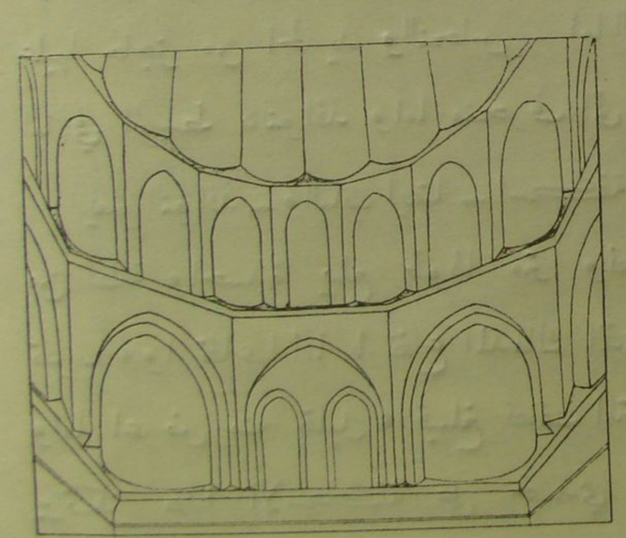
الفتحة توزيع ما يأتي من البناء فوق هواء النافذة الى جانبيها لتخفيف الثقل عنها .

وأحياناً نجد في بعض الترب قوسين من هـذا النوع جعلتا زيادة في الاحتياط كما في التربة القيمرية[1] .

ان هذا التفنن في بناء النوافذ والأبواب — وقد اوحته الضرورة — هو اقصى ما نجده على الجدران من التكلف والتجميل في الدور الأيوبي .

وقد جعل البنائين أحياناً — في عهد المماليك — طاقات صغيرة مستديرة حولها طراز من الزخرفة الهندسية ، وذلك لملء ما تبقى من الفراغ في الجدار بين النافذة والأفريز كما في التربة الملكية الظاهرية .

ومما هو جدير بالذكر ان الترب لم تستقل بالأبواب العالية المشرعة - ذات الحجر العميق والمقرنصات — إلا في عهد المماليك .



وقد برزت حينئذٍ الكتابات التاريخية على واجهات الترب بدلاً من مكانها القديم على الأسكفة . وزينت تلك الواجهات بسطر واحد من الكتابة المزبورة على الحجر بخط نسخي عريض يبلغ ارتفاعه أحياناً ستين سنتمتراً ويطوقه شريطين عريضين ، ويلف أحياناً في حجر الباب وينتهي كما يبتدي بزاوية مذوقة .

**الحطة** : ومكانها في بناء التربة فوق القاعة ، وهي الكرسي الذي ترتكز عليه القبة ، مبنية بالحجر أو الآجر ، وشكلها مضلع . وبناء أغلب الترب يحتوي حطتين الاولى مثمنة والثانية ضعفها أي ذو ستة عشر ضلعاً . تخرق كل ضلعين نافذة ، تتلوها كوة عمياء .

---

(١) تربة الأمير الكبير سيف الدين القيمري . توفي سنة ( ٦٥٣ — ١٢٥٥ ) في نابلس ونقل إلى دمشق ودفن بتربته . ( بناء أثري مسجل رقم ٤٧ ) .

**القبة** : وهي سقف التربة ، تبنى بالآجر ، وشكلها اما مستدير أو مضلع ويتوج قمتها الهلال ( وسنأتي على تفصيلها هي والحطات فيما يلي ) .

أما الترب من الداخل ؛ فقد كان بعضها يشيد بالقناطر المعقودة على شكل الحنايا ( Voûtes ) ويعيبها حينئذ سقفها المنخفض ونورها الضئيل ، كما هي الحال في الأقبية بصورة عامة .

وحرصاً على ايجاد الشكل المناسب للترب ، وتوفير الشروط الملائمة لبنائها مع توخي المتانة والرشاقة ، لجأ البناؤون الى طريقة تعتبر من احسن الأساليب في بناء الترب وهي : القبة التي حلت محل العقد وغدت من مستلزمات الترب الضرورية ومن أهم العناصر الهندسية المميزة لها .

وحيث ان تشييد القبة المستديرة على القاعة المربعة يتطلب تحويل هذه القاعة ( في أعلاها ) الى شكل مستدير ايضاً ، فقد لجأ البناؤن الى عدة اساليب كان عمادها الحطة دائماً ، وقوامها اربع كوى مجوفة في شكل المحاريب تقع في اركان المربع من اعلاه ، واربع كوى اخرى مجوفة اعتيادية لها اقواس تحاكي رؤوس المحاريب تقع فوق جدران القبة فيتكون من مجموعها شكل اعلاه مثمن ، بل قريب من المستدير يتيسر تركيب القبة عليه . وهنالك طريقة اخرى قوامها جعل الزوايا في شكل المثلث تنتهي في اعلاها اركان القاعة الأربعة بخط مستقيم ، تشكل مع جدران القاعة شكل مثمن ، فترتكز عليه المثمنة فتصبح اربعة من اضلاعها على الجدران الأصلية للقاعة واربعة على هذه الزوايا . وتركب غالباً على الحطة الأولى حطة اخرى اضلاعها ضعف الاولى كما سبق ان بيّنا ذلك .

وقد جمعت بعض الترب قبل ان تستقر على احد هذه الاساليب بين اسلوبين فجاءت مزيجاً من الاثنين ( وقد شيدت التربة العادلية على هذا النمط ) .

**الضريح** : ويتوسط قاعة التربة ؛ واتجاهه من الغرب الى الشرق . ويشيد اما بالحجارة المنحوتة ، او بالآجر فيكسى بطبقة من الجص تبلغ ابعاد القبر المتوسط في الحجم ، طولاً ١،٨٠م وعرضاً ٩٠ سم . وارتفاعاً كذلك ، اما من حيث الشكل فتعتبر القبور القديمة متواضعة بالنسبة للقبور المألوفة في القرن الماضي او الحاضر .

ان الشكل المألوف للاضرحة القديمة قوامه قاعدة مستطيلة يبلغ ارتفاعها اربعين سنتمتراً تقريباً . فاذا كانت من الآجر علاها قبر مدبب الشكل — على هيئة الحنية ( القبو ) المعقودة وهو مبني على هذا الشكل وتقع الشاهدتان امامه وخلفه في نتوء يحيطه اطار من البناء ذاته

واما اذا كان مبنياً من الحجر فيقام عليه قبر مثلث على شكل التابوت ، من قطعة واحدة احياناً ، وتضم بعض هذه القبور شاهدتين من الحجر او الرخام ، احداهما على رأس القبر من الغرب وتحتوي على اسم صاحبه وتاريخ وفاته ، والثانية ، من جهة الشرق مكتوب آيات قرآنية ، وقلما تتجاوز هذه الشواهد ارتفاع الضريح كثيراً وتنقش في بعض الأحيان الكتابات حول الضريح وتشمل حينئذ بعض الزخارف.

وهنالك تقليد قديم جداً في القبور الأثرية قوامه جعل التوابيت الخشبية من فوق الأضرحة . ولهذه التوابيت شكل مستطيل في منتهى البساطة ، غير انه مغشى بزخارف ونقوش تعتبر آية من آيات الفن والأبداع من حيث الدقة والاتقان ويتجمع بين الواحها كافة العناصر الزخرفية المألوفة حينئذ وأهمها الكتابات الكوفية والأشكال الهندسية ، والرسوم النباتية .

**المحراب :** ويتصدر القاعة في الجدار القبلي من التربة ، وهو من أهم العناصر المألوفة فيها ، لا تخلو منه تربة واحدة . وله مكانة مرموقة في تزيينها لما يحف به من الزخارف المتنوعة ، فضلاً عن الأعمدة التي تكتنف جانبيه في الخدين .

ويشيد المحراب بالحجارة الغشيمة ويكسى بالجص ، أو بالحجارة المنحوتة ، وتجعل في قمته مزررات ( Claveaux ) متنوعة ، كما ينفرد احياناً المحراب بالحجارة المنحوتة دون الجدران . وعلى أية حال فان اعمدته لابد أن تكون أما من الحجر أو من الرخام ، محلاة بنقوش لولبية مضلعة ، وتعلوها تيجان مزينة بانواع الرسوم النباتية ، وكانت كل المحاريب في الترب حافلة بهذه الأعمدة كما يبدو من اماكنها الخالية اليوم من كل أثر الا ماندر ، مما يدل على انها كانت من انفس ما تحتويه الترب .

**الزخرفة والتزيينات الداخلية :**

ان للزخرفة أثراً عظيماً في بناء الترب من حيث الشكل والمظهر وإذا خلت بعض الترب من الزخارف في الخارج فانها كلها غنية بها في الباطن .

والكلام عن الزخرفة في الترب معناه الحديث عن الصناعات اليدوية في سوريا ، وأجدر بالترب التي تشاد لأغراض تذكارية روحية أن تحوي زخارف يظهر فيها الصناع براعتهم وحذقهم .

وهكذا كانت الترب كغيرها من انواع الأبنيه ، ميدانا للمباراة في الصناعات والزخوف ، ومن أفضل الأمكنة لعرض مبتكرات الصناع والفنانين ، فاسهمت في تزيينها اغلب الصناعات وأهمها : صناعة النحت على الحجر والرخام ، والتطعيم بالحجارة الصغيرة الملونة (نوع من الفسيفساء ) والفسيفساء . وصناعة النجارة ، من حفر وتدكيك وتطعيم وسواها ، وصناعة الجص ، وكانت الزخارف تتجلى في هذه الصناعات وبالتالي في الترب بأشكال والوان متنوعة أهمها : الكتابات ، والأشكال الهندسية والرسوم النباتية . وكان للخطوط دور كبير في زخرفة الترب منذ عهد بعيد وقد تطور الخط في كل دور من الأدوار ، ونشأ عن ذلك عدة انواع أهمها الكوفي ، والنسخي ولكل منها عدة فروع وأصول .

أما الأشكال الهندسية ، فكان لها مكان مرموق بين العناصر الزخرفية في سوريا وقد شاع استعمالها منذ أوائل العهد الأسلامي كما نجدها في قصور الأمويين[1] وقد تفنن الصناع في تنويعها في اشكال لاتعد ولا تحصى . وكذلك الرسوم النباتية فقد تفنن الفنان السوري في استخراج أشكال متنوعة عديدة منها على درجة من الاتقان والكمال .

وقد كانت الترب تحتوي أيضاً على كثير من الحاجات الضرورية لتأثيثها وتنويرها وتزيينها كالطنافس والنمارق والفرش والقناديل والثريات ( والشمعدانات ) وكرسي المصحف وغيرها من الأشياء التي كانت تصنع في سوريا وتتمثل فيها ارقى مظاهر الفن السوري ، فضلاً عن الكتب المخطوطة التي كان تجليدها وخطها ، وتذهيبها ، ونقشها يعتبر من اهم الصناعات الوطنية .

## الأدوار وخصائصها

لكل دور من الأدوار التاريخية التي مرت بها دمشق اساليبه الخاصة ، تتجلى في تطور العناصر الهندسية والزخرفية وتجددها في أشكال مبتكرة حسب الظروف والتأثيرات الخارجية ، وقد اتينا فيا يلي على تحديد تلك الأدوار بصورة موجزة ، وتعيين أهم الخصائص التي يمتاز بها كل دور من الأدوار .

---

(١) قصر الحير الغربي للدكتور سليم عادل عبد الحق . مجلة الحوليات الأثرية السورية المجلد الأول الجزء الأول . ( ١٠ ) مكرر

## الدور النوري

يبتدئ في سنة ( ٥٤٩ هـ . = ١١٥٤ م ) وينتهي في سنة ( ٥٦٩ هـ . = ١١٧٣ م ) وهو يشمل عهد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي فحسب ، والتربة الملكية الوحيدة التي شيدت في هذا العهد هي تربته .

وعلى الرغم من قصر مدة هذا الدور واقتصار الترب الملكية فيه على تربة واحدة ، فان كافة الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تحيط به تجعل منه دوراً مستقلاً قائماً بذاته ، وتبرر تسميته بالدور النوري ولا سيما من الوجهة العمرانية . فان صح تسميته ريازة دور من الأدوار بالريازة الملكية فان الأبنية التي شيدها نور الدين هي الوحيدة التي تستحق ان نطلق عليها هذه التسمية ، اذ انفردت في عناصر جديدة مبتكرة ، غير مألوفة في سوريا ، لا سيما في بناء القباب وخصوصاً في التربة النورية ، ولذلك سنأتي على ذكر أوصافها ومميزاتها التي تعتبر من أهم خصائص وميزات هذا الدور ، عند البحث في شأنها بصورة مفصلة .

## الدور الأيوبي

يمتد هذا الدور من سنة ( ٥٩٦ هـ . = ١١٧٣ م ) لغاية عام ( ٦٥٨ هـ . = ١٢٥٩ م ) وسمي بالدور الأيوبي ، نسبة للملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب ، مؤسس الدولة الأيوبية . وقد بلغت الريازة السورية في هذا العهد اوجها من الرقي والكمال ، في كافة الأوجه والنواحي . فخضع بناء الترب من حيث الهندسة والتصميم لقواعد وأساليب فنية دقيقة ، ونظام صارم لا يحيز عن المنطق والضرورة ، فكان التناسب في الأبعاد ، والتناسق في العناصر ، والاعتناء في الزخارف ، وغير ذلك ، موضوع دراسة عميقة ، وبحث دقيق ، ونتيجة للخبرة والتجارب في فن البناء خلال عصور عديدة . أصبحت كافة العناصر الهندسية والزخرفية في هذا الدور ذات طابع سوري بحت ، كما استقرت فيه ريازة التربة على اسس وقواعد عامة ثابتة ، اسلفنا وصفها من حيث شكلها النموذجي المألوف . فخصائص هذا الدور هي خصائص الأسلوب السائد في تشييد الترب ، ويعتبر هذا الدور من حيث الوفرة في الأبنية والاتقان في البناء الدور الذهبي للريازة في سورية .

## دور المماليك

يبدأ في سنة ( ٦٥٨ هـ = ١٢٥٩ م ) على اثر انقراض الدولة الأيوبية على يد التتار وأسرهم لآخر ملوكها ، حفيد السلطان صلاح الدين وسميه ؛ الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي ، وينتهي سنة ( ٩٢٢ هـ = ١٥١٦ م ) عقب استيلاء العثمانيين على دمشق ، وتقلص حكم المماليك منها ، وقد انتقلت العاصمة خلال هذا الدور إلى مصر واصبحت دمشق مرة اخرى ولاية يحكمها نائب عن الملك – امير الامراء – على انه دفن فيها ، في هذا الدور ، ثلاثة ملوك اشهرهم الملك الظاهر بيبرس البندقداري – الذي احب دمشق وسكنها مدة طويلة وشيد بها قصره الشهير بالأبلق[1] ومدرسة وتربته التي دفن فيها – ومن أهم خصائص هذا الدور تشييد الترب وفقاً لتصميم خاص – في بناء مستقل له جبهة اساسية ، ومدخل عمومي مشرف ذو حجر ومقرنصات ويضم حجرة خاصة للضريح وتجاهها مصلى صغير . وبينهما ممشى يؤدي اليها ، وقد روعي في هندسة هذه الجبهة التناظر في الأشكال تجاه المدخل في وسطها . كما غلب في هذا الدور ميل المماليك للزينة والزخرف حتى الافراط متحدين بذلك الوقار والاتزان اللذين اتصف بهما الدور الأيوبي . على ان لا تخلو أغلب أبنية هذا الدور من الروعة والجمال .

يتبع

---

(١) احترق هذا القصر وتهدم على أثر دخول التتار الى دمشق سنة ( ٨٠٣ ) . فشيد مكانه السلطان سليمان القانوني التكية والمسجد تجاه المتحف الوطني من الشرق . مشاهد دمشق الأثرية للدكتور سليم عبد الحق ، وخالد معاذ ( صفحة ٦٧ اللوح رقم ٤٥ ، ٤٦ )